فوق الشجرة ...

قصة بقلم أميمة أبو النصر

فجأة يكتشف دفء الشجرة . الاوراق تتعاطف وتلتف لتكون له عشا . خضراء وبنية وذهبية تحجب الشمس وتمررها في رفق . شعاع مصفى يسقط على وجهه يدفيء عينيه . عرف الآن كيف تبرد العينان . في فصول الشتاء الماضية عرف برد الوجنات والانف والعظام لكن برد العينين عرفه الآن في هذا الوقت الذي لم يعرف مداه . فقد تحول فيه الى مجرد عينين مراقبتين او ناعستين . مسحته الشمس .. صديقة.. تحت ضوئها يتألق الحصى في فناء المدرسة . فسحة الفناء تريح النفس الصغيرة التي يضيق حقلها يوما بعد يوم . مرح الصبا يجتاح احزان الكبار ، يتفجر في المدرسة حلقات للعب . كانت حلقات اللعب تتوقف ترقبا وتكتسي الوجوه الطفلة ايضا جدية قلقة عند زيارة المفتش اليهودي . التعليم مزلق . لكن المدرس الحصيف هو الذي يدون تاريخ العرب في قلبه لا في كتاب . نما خوف اليهود . حكاية الاب لا تحمل كره اليهوديوم ان كان باقي الاهل في فلسطين. فلننتظر ما يسطره الابن .

العودة من المدرسة ساعة اخرى للمرح . للعدو لذة وللمشي لذة. وكآبة الاهل في البيت لا تراها عيون الصغار .

على حجر امام الدار تجلس لمياء الصغيرة بفستان يكشف عن ساقيها وضفيرة رفيعة كصوتها الطفل . تتخلل الشمس شعرها المهوش. يميل ليداعب ضفيرتها في روحاته ونظل هي تقضم الباذنجانة الخضراء وتؤرجح ركبتيها في جذل كأن يده يد أم . الضفيرة في يده . امام عينيه . داكنة . تكبر . تمتلىء . تكتسب لمعة . ضفيرة فتاة تحيطها هالة من الشعر المهوش المضيء . يحسها في داخله . شعر ووجه عزة فتاته . ضحكتها رائحة عطر . همومها ثقل في قلبه يلزمه شيء ليصير ثورة اليوم هرولت مذعورة مبهورة الانفاس تنبئه بمن جاء لخطبتها . لا يميل القلب الى الآخر الحبيب يافع لكن العمل عزيز . مسح على شعرها واحتضن كفها . قبل الكف ببطء . لا يأس . موكب العمل يشق القرية كل صباح يضم صبية اصغر منه . يوجد العمل في الاماكن البعيدة لكن سيارة العمال تنقلهم مع الشروق وتأتي بهم مع المساء . اختلطت صورتاهما في فرحة مع قرار العمل . الزمن كفيل بالتدبير .

محظوظ من يجد عملا ، الارض الباقية تضيق بالافواه ، لكن للعمل مع الغرباء مذاق الصبر . يمكن لسجين بين جنبات قرية ان يتذوق الحرية حتى الثمالة . تظل تعكرها الفاقة . لكن العمل كأجير لدى هؤلاء الغرباء ! ليست الغربة فقط هي سواتهم . انه الشعور الذي يبنونه عن عمد بالدونية . تبا للغرباء . يالخداع الكلمات . لم يعد احد يدري من هو الغريب .. ما كان للزمن ان يجعله شعورا عاديا لدى اهل البلاد . فلتنغلق النفوس على كنوزها حتى نرى ما يأتي به الغد. جمعا بعض العشب لدواجن الدار. تعابثا كطفلين خليين ثم عادا ادراجهما قبل الغروب . يجب الا يراهما احد . هرولا وهما يسمعان صوت سيارة العمال .

ما الذي اوقف السيارة قبل بلوغ البلدة بمسافة ؟ الطريق يسده الجند الغرباء . السلاح مسدد للوجوه لكن البراءة عمياء تنتهك في اللحظة التي لا تعود فيها الخبرة تجدي . لا تقل لا جدوى ، بل قل لا وقت للمقاومة ، لا وقت للفهم . والتعاسة لمن أتيحت له فرصة الوعي بما حدث . لا منجاة من الموت سوى بالموت . لا يدري انسان ماذا يفعلون به بعد الموت . في لحظة تساقط صف العمال العائدين تحت رصاص الجند ولم يعرف تسعة واربعون قتيلا لماذا ؟

شعر بالكاد بركلة حذاء تقلب في جسده لكنه هو نفسه كان موقنا انه ميت تماما . محظور تجول الموتى . يبقى البحث عن طريقة لابلاغهم بذلك . لا يهم الابلاغ . من يوجد من الموتى يتجول اثناء حظر التجول فاقتلوه . تقلب وسبط الاجساد الممددة . رفع رأسه في حذر . الليل ستار صديق . سار على يديه ورجليه تلهبه قوة للبعد عن الاموات . الارض خطر فليبتعد عنها . لكنها مسدودة متلاصقة . تحول الكون الى عيون . لكن الخطر يقل كلما ارتفع عن الارض . في لحظة تسلق جذع الشجرة وتوغل في اشد غصونها كثافة. الاغصان حنونة مريحة احتضنها بيديه واراح رأسه فوقها واخفى ساقيه بين الاوراق وراح في اغماءة تشبه النوم .

صحا يفكر ما الذي يجب ان يتذكره ؟ يا للرأس المغلق !.. آه .. على المرء الا ينسى هويته .لكن لماذا قتلوني وانا اعرف هويتي ؟ ... ـ ١٨ سنة ـ كفر قاسم ـ فلسطين ـ عذرا .. اسرائيل . لا ضير من الاسماء ما دام من الممكن استبدالها دائما . لكنك لا تستطيع ان توقف الالم . برد الليل وريحه مسكن جيد للجراح . لكن هذه الشمس المشعة تتخلل الجسد . ترد له الشعور بالحياة وبالالم . للشعور مزالق وعرة لا يستطيع الانسان ان يجابهها وهو فوق شجرة .

الشعور فخ فلتصمتوا جراحكم ولتغمضوا اعينكم ولتقفلوا افواهكم. ففي اللحظة التي لا يعود فيها المرء يحتمل جراحه سينزل الى الارض مصيدة تأكل بنيها . كذلك النوم . وهو قد يدهم الجسد كما دهم الموت هذه الاجساد التي ما زالت ملقاة على مرمى البصر . لا صديق سوى الخوف فلا زحف فوق هذين الغصنين المتلاصقين .

يستدير الجريح بدهشة غامرة مع مواء قطة تمر بالقرب من الشجرة . في لحظة يرى القطة عدوا .. ضحية .. لكن هوادة خطواتها المتسقة مع موائها المستطيل يقول انها قطة وكفى . وهي قطة تسير على الارض مثل باقي القطط لم يتسلق الشجرة فهي لم تركب سيارة العمال. لكن سيارات العمال تجوب العالم كل يوم .. اين تكمن اللعنة اذن ؟ الحذر .. تفرع التفكير مصيدة ، فعليه ان يفكر في شيء واحد .. هذه الشجرة هي بيته وملجأه . وفي اللحظة التي يفضل عليها مكانا آخر سيكون عليه ان يفضل الموت على الحياة .

الغريب ان الطيور لا تخشاه على الشجرة كما كانت تخشاه على الارض ، لا غرو انه في ضيافتها . سكن عصفور على صدره مرة وذراعه مرة . ونظر له بعين صغيرة مستديرة لا تغمض . هز ذيله ثم طار . دهمته الوحدة وثار من جديد ألم الجراح . قتله بالخوف . الخوف موت وهو حياة ما ظل قائما . سمع ضحكة افلتت من فمه وهو يتذكر خوف طفولته من الظلام ومن الجن . ليته يجد الآن جنيا يمسح على جبينه الدامي كما مسح هو على جبين عزة يوم قرر ان يلتحق بموكب العمال .. لم تشجه ذكرى عزة ، فالخوف يقتل الحزن كما يقتل الالم . لو عرف خوفه هذا الوفاء له لاستطاع ان يبقى هنا في مكانه حتى نهاية العالم . ليس عليه الا ان ينتظر عودة العصفور . اين ذهب احياء العالم في هذا الصباح ؟ يريد ان يشاهد شيئا يتحرك ليستمد وقودا لخوفه .

حركت نسمات صباحية اوراق الشجرة فوق رأسه . لم يخدع فالخطر يأتي من الارض استسلم لاغفاءة النسمات واستيقظ ليجد عصفوره هناك يلتقط بمنقاره ورقة خضراء من الشجرة . كطفل يتعلم من ابويه حرك رأسه والتقط بفمه اقرب ورقة خضراء . مضغها وابتلعها ثم التقط اخرى .

وعندما اكتشفوا وجوده فوق الشجرة بعد ثلاثة أيام لم يكن قد استيقظ من اغماءته الاخيرة . كانت دماء القتلى ما زالت تبعث الخرس في الناس ولكن جارا تعرف عليه واتى بأمه ، وفي لحظات كان من بقي من كفر قاسم يقف في دائرة صامتة حول الجريح الذي بدأ يستفيق . تقلب فوق الغصنين المتلاصقين وفتح عينيه شقا يكفي لاكتشاف الخطر.. المكان يمتلىء بالناس كحقل من الذرة لا نهاية له .. أمه وجده وفتيات كن لا يغادرن الدار وصبية من المدرسة بعيون واسعة مفتوحة.. التحمت ظلالهم مع ظل الشجرة التي تسلقها الرجل وامتدت حتى تعدت المكان . في لحظة واحدة فقد الرجل حذره وخوفه معا . كان قد امتلك قمة الشجرة وقمم الاشجار المجاورة وكان على ناس كفر قاسم وناس القرى المجاورة ان يستمروا في سقي الاشجار وتغذيتها لتنمو وتورق وتظلل الرجل حتى تشفى الجراح .

القاهرة — أميمة ابو النصر